في الأدب الانجليزي الحديث

د . هـ . لورنس

للأستاذ عبد الحميد حمدي

٤ – الاباحية في الأدب

ينتمي الإنسان الحديث إلى إحدى طوائف ثلاث : فهو إما رجل يخشى جسمه ولا يعترف بوجوده بحجة أن تفكيره كله مركز في الحياة الروحية دون غيرها ، وهو لذلك يحارب كل ما يمت إلى الجنس بصلة وينكر على نفسه كل رغبة جنسية مهما كان مصدرها أو موضوعها . وقلما ينجو أمثال هذا الشخص من غضب جسمه عليه في آخر الأمر ومن ضربته القاضية التي يكيلها له دون ما هوادة أو رحمة . وليس أدل على هذا من الأخبار التي كثيراً ما نسمعها عن أساتذة كبار أو قساوسة نيّفوا على الستين مع فتيات قاصرات ممن يتعلمن في مدارسهم أو يقصدن كنائسهم . وليس أمر هؤلاء بالحير ولا تعليل ما فعلوا بالعجز ، فهم تنكروا لأجسامهم وكبتوا رغباتها ، فكانت نتيجة ذلك أن اعتل تفكيرهم واختل ميزان عقلهم ، فأتوا من الأعمال ما لا ينطبق على العقل في شيء

وهناك رجل آخر هو على النقيض من الرجل الأول ، أرخى لجسمه العنان وعاش من أجل متعة جسده لا غير . فهو يرى في جسمه وسيلة إلى اللذة فأسرف في الانغماس فيها ، لا فرق عنده بينها وبين أن يتناول كأساً من الكوكتيل أو غيره مما يشتهيه الجسد ويتلذذ به

وأخيراً يأتي النوع الثالث من الرجال وهم للأسف كثيرو العدد . ويمتاز هذا الرجل بعقل قذر لا يغذيه إلا كل قذر . فهو رجل يغرم بقراءة الكتب التي تبحث في العلاقة الجنسية ، ولكن رائده في ذلك ليس تفهم فلسفتها أو الإفادة مما جاء بها ، وإنما رائده التفتيش عن كل شيء خارج ، لأنه يجد في قراءته لذة لا تعدلها لذة أخرى . ونجد هذا الشخص ميالاً إلى الاستماع إلى القصص التي تعالج هذا الموضوع وكذا النكات والفكاهات فكأنهم يجعلون من أساس حياتهم وعمادها موضوعاً للهزل واللعب . وهؤلاء وأمثالهم يربأ لورنس أن يكونوا من قراء كتبه

ومن غريب الأمر أن يتكلم هؤلاء الطوائف عن لورنس ككاتب إباحي مفحش في القول ، لا فرق عندهم بين من قرأ منهم كتبه ومن لم يقرأ . ولا يضع لورنس كل اللوم على هؤلاء الناس ، بل هو يوجه بعض لومه على القرن السابق الذي لا زالت تعاليمه مسيطرة على عقول الناس في العصر الحالي ، تلك التعاليم التي أكل عليها الدهر وشرب ، والتي ظهر خطأها وكان يجب أن يبطل العمل بها . وليس أدل على تأخر جيل من خضوعه لقيود الجيل السالف واستسلامه لتعاليمه ، وإن ينطبق هذا على شيء فهو ينطبق على القرن العشرين الذي ما زال يرسف في أغلال القرن التاسع عشر على الأقل من الوجهة الاجتماعية . ففي مجتمعاتنا لا زلنا نحرص على التمسك بقيود أسلافنا ، وحتى في الأفلام التي نشاهدها ، وفي الكتب التي نقرأها ، وفي الأحاديث التي نستمع إليها ، ما زال لهذه التقاليد أكبر سلطان علينا ! فمثلاً لا زلنا نعتقد أن الجنس والعلاقة الجنسية هي من الموضوعات المحرمة التي لا يجب الخوض في بحثها ، أو الإشارة إليها إلا متسترين ، أو من طرف خفي . فالوالدان إذ يتحدثان إلى فتاتهما لا يزالان يقنعانها أنها يجب أن تكون في نقاوة الزهرة وطهر الملائكة ، وهم إذ يشبهونها بالزهرة فإنما يقصدون أنها يجب أن تتخذ الزهرة مثلها الأعلى ! ووجه الشبه الذي بينهما هو – في اعتقادهم – خلو كل منهما من الرغبة الجنسية . وأمثال هؤلاء القوم مخطئون في تشبيههم ، فلا الزهرة خالية من الرغبة الجنسية ، ولا الفتاة بمستطيعة أن تكون في غنى عن هذه الرغبة ! والحقيقة أن للزهرة جنساً ، وأن لها رغبة جنسية ، وليس من العدل في شيء أن نحرم الفتاة مما لم تحرم منه الزهرة ، بعد أن شبهنا الواحدة بالأخرى . ومع ذلك لا يفتأ الوالدان يكرران على مسمع الفتاة أمثال هذه الترهات حتى يأتي الوقت الذي تبغض فيه الجنس الآخر ، وتنظر إليه نظرتها إلى عدو لدود ، ولكنها بعد أن تنمو وتكبر وتصل إلى الدور الذي تبحث فيه عمن سيكون شريك حياتها ، تصطدم بالفكرة الخاطئة التي غرسها في نفسها والداها ، فيحدث عندها انقسام وصراع ينغص عليها عيشها ويفسد حياتها !

وليس فى استطاعة أحد تعريف الإباحية أو تحديدها ، بل هى فى الحقيقة أمر نسبى كغيره من الأشياء النسبية ، فما يعده شخص إباحياً ، قد يعده شخص آخر غير ذلك ، وما كان إباحياً فى عصر من العصور قد لا يكون كذلك فى عصر آخر وهكذا. فمثلاً كان الإنجليز فى عصر كرمويل يعدون رواية « هاملت » إباحية لا يستسيغها ذوقهم ولا تتفق وتعاليمهم الأخلاقية . . . وها نحن أولاء فى العصر الحالى نعدها من بين أهم روايات شكسبير وأقواها ، بل ومن أهم روائع الأدب العالمى . وعلى العكس من ذلك ، يعد بعض الناس فى عصرنا هذا روايات أريستوفانيس إباحية تخدش قوانيننا الخلقية وتنتهكها ، ولكن هذا لم يمنع الإغريق من أن ينظروا إلى أريستوفانيس نظرة التجلة والاحترام ويضعونه فى مصاف كتاب الدرجة الأولى

وإذا سألنا أنفسنا عن السر فى اختلاف حكم شخص عن حكم شخص آخر أو حكم جيل عن حكم جيل آخر لما أعيانا السؤال أو استعصى علينا الجواب . وتفسير ذلك أنه ما من كلمة إلا ولها معنيان : المعنى الإجماعى ، أو المعنى الشعبى وهو ما اتفق الناس عليه ؛ والمعنى الخاص ، أو المعنى الفردى وهو المعنى الذى يفهمه كل قارئ على حدة حسب تفكيره وخياله وتجاربه . وليس فى مقدور كل شخص أن يكوّن هذا المعنى الفردى لأنه يتطلب من صاحبه أن يكون تفكيره من النوع العميق ، وأن يكون خياله خصباً ، وأن تكون تجاربه واسعة . وإن كتب لورنس لهى من النوع الذى يجب أن يعتمد القارئ فيها على المعنى الفردى ، وإلا فهى أعمق من أن يسبر غورها أو يتفهم فلسفتها أو يحيط علماً بما بها . وإن أمثال هذا القارئ قليلون ، ولهذا السبب كان عدد من يفهمون لورنس على حقيقته قليلاً ؛ ولكن الغالبية من القراء يستسهلون قراءة لورنس عن طريق المعنى الشعبى الذى هو أبعد ما يكون عما قصده الكاتب . وهم لهذا السبب ينعتونه بأنه كاتب إباحى أو مفحش فى القول . ولو أن أحدهم كلف نفسه مشقة سؤال عقله « هل ما أقرأ يصطدم وتعاليم عقلى الخلقية الصحيحة » لكان الجواب بالنفى . ولكن قليل هم من يفعلون ذلك ، بينما يلجأ الكثير منهم إلى تلك القواعد والقوانين الخلقية التى ورثها عن أسلافه جيلاً بعد جيل ويطبقها على ما يقرأ وإذ ذاك يرمى صاحب الكتاب بالفحش والخروج على القوانين الأخلاقية . والحقيقة الواقعة هى أن ما يقرأ قد يجرح العينين لأنهما لم تألفا رؤية أمثال هذه الكلمات من قبل ، أما العقل فهو يعرفها تماماً وطالما فكر فيها ، فهى مألوفة لديه مألوفة له ، فهى إذن لا تجرحه ولا تتعارض وتعاليمه الأخلاقية

ويعتبر الناس أن كل ما يثير الرغبة الجنسية إباحى ، وهم ولا شك مراءون مضللون يقصدون خداع الغير بعد أن نجحوا فى خداع أنفسهم . ومن غريب الأمر أنهم مجمعون على أن الكون لا تقوم له قائمة من غير الجنس والعلاقة الجنسية ، وهم يعرفون تماماً أن هذه العلاقة كانت وما زالت وسوف تكون أساس الحياة فى هذا العالم ، وأننا لا نستغنى قط عما يثير فينا الرغبة الجنسية ، وإلا انهار الكون وتقوض بناؤه . وفوق ذلك فهم يعتبرون بعض القصائد الشعرية واللوحات الفنية والقطع الموسيقية والروايات والقصص من روائع الفن أو الأدب ، وهى كلها تعتمد على الجنس وقواها إثارة الرغبة الجنسية . ومع كل هذا فما زال الاعتقاد سائداً بينهم أن الكلام فى هذا الموضوع هو من المحرمات التى لا يجوز الخوض فيها . وهم يقصدون بالكلام فى هذا الموضوع الكلام الجهرى فقط ، إذ أنهم لا يأنفون من خوض غمار هذا الموضوع ما دام التستر رائدهم وما داموا بعيدين عن أعين النقاد

والحقيقة التى لا شك فيها أنه ليس هناك أى ضرر من معالجة الكتب لموضوع العلاقة الجنسية ، ما دامت لا تقصد من ذلك سوى منفعة الفرد وخدمته ، عن طريق تنوير ذهنه وإرشاده إلى طريق الحياة السوى الصحيح . وأما ما يجب محاربته بشدة فهو تلك الكتب التى تنشر سراً بين الناس انتشار الأمراض الخبيثة ، والتى تدلس العلاقة الجنسية وتسىء إليها كل الإساءة ، والتى لا يبغى أصحابها من ورائها سوى منفعتهم المادية الشخصية . وإن سبب انتشار أمثال هذه الكتب انتشاراً ذريعاً وإقبال الناس على اقتنائها وتلهفهم على قراءتها هو ذلك الجو الغامض الذى أحاطه الناس جيلاً بعد جيل بالعلاقة الجنسية . فحب الاستطلاع الذى لا يخلو منه فرد هو الذى يدفع الولد والشاب والكهل إلى أن يختلى

بكتاب من هذا النوع عسّله يقف منه على ما حرم من سماعه طيلة حياته . وإن انتشار هذه الكتب لهو أشد ضرراً وأسوأ عاقبة من قراءة الكتب الصريحة ، وشتان بين الأثر الذى تتركه أمثال هذه الكتب ، وبين الأثر الذى تتركه قصص بوكاتشيو مثلاً ، مع أن الناس اعتادوا وضعها فى مرتبة واحدة .

ولكن الغريزة الجنسية التى لا غنى للناس عنها تتطلب من الفرد تنفيساً عن رغباتها . فإذا ما جلب له هذا التنفيس الخزى والعار بين قوم لا يميزون بين الغث والسمين ، عمد إلى وسيلة أخرى ينفس بها عن رغباته دون أن يعرف الناس عنه شيئاً . وليس لديه ما هو أقرب منالاً من العادة السرية يرتكبها ويسرف فى ارتكابها ، لأنها طريقه الآمن الوحيد الذى لا يتعرض فيه لنقد ناقد أو تهكم متهكم . وقد هاجم لورنس العادة السرية بكل بكل ما فيه من قوة لأنها فى نظره سرطان المدنية الحديثة وداؤها العضال ، فهى التى قتلت فى الإنسان الحديث حيويته وتركته رجلاً وما هو برجل ؛ فضلاً عن أننا نلمس فى مرتكبها ثوب العار والمذلة الذي لا يخلعه عنه قط . وإنا لنلمس أثر العادة السرية فى كتابات العصر الحديث ، فكما أنه فى العادة السرية ليس هناك شخص وموضوع بل هما واحد ، كذلك فى كتابات هذا العصر نرى أن موضوع الكتابة والكاتب هما شيء واحد ، بمعنى أن الكاتب يعمد إلى شخصيته أو نفسه فيحللها تحليلاً دقيقاً ويبنى على هذا التحليل كتابه . ومن أمثال هذه الكتب كتاب « يوليسيس » لجيمس جويس

وقد تنبه الناس فى العصر الحالى إلى الضرر البليغ الذى ينجم عن إحاطة العلاقة الجنسية بجو من الغموض والإبهام ، وأدركوا عظم الهاوية التى قد يجرفهم إليها تيار هذا الغموض ، ولكنهم للأسف نجحوا فى تشخيص المرض ثم عجزوا عن وصف الدواء . ففى محاولاتهم لقتل هذا الغموض قتلوا الجنس نفسه وأعدموا الرغبة الجنسية . فظهرت كتب عديدة تحاول أن توضح كل شيء فى العلاقة الجنسية فكان من جراء ذلك أن زالت عنها كل قدسية ، ومن أمثال هذه كتب مارى ستوبس Marie Stopes . وذهب فريق ثان إلى التغلب على هذا الغموض بأن انغمس فى هذه العلاقة وأسرف فيها ، وهؤلاء هم البوهيميون الذين كان من جراء تغالبهم فى هذه العلاقة أن عرفوا كل شيء عنها ، غير مدركين أن العلاقة الجنسية هى ينبوع مقدس يتفجر منه الماء بقوة آلهية ، حتى إذا ما حاول الإنسان أن يكشف السر عن هذه القوة توقف تفجر ماء الينبوع ثم جف

فغرض لورنس الذى يرى إليه هو أن يعالج الكتّاب هذا الموضوع فى شيء من الصراحة التى لا تحلل كل شيء بطريقة علمية حتى لا تفقد هذه العلاقة قدسيتها . وكذلك يريد لورنس أن يعلم الناس أن هذه العلاقة شيء مقدس لا خزى فيها ولا عار؛ فهو يريد أن يرفع من شأنها ويهيب بالناس أن يقدسوها التقديس اللائق بها ، وفوق ذلك يريد لورنس أن يقول الإنسان ما يعتقد دون خفاء أو مواربة

ولورنس يكتب الآن لأقلية من القراء المفكرين واسعى العقول إلا أن الوقت سوف يأتى عند ما يؤمن الناس به جميعاً ويدافعون عن آرائه ومبادئه ويعملون بما يبشر به ، وهم إن فعلوا ذلك فسوف يحيون حياة جديدة كلها هناء وكلها سعادة وكلها رفاهية .

(يتبع)

عبد الحميد حمدى
خريج جامعة أكستر بانجلترا

الحرب العالمية وأسبابها

(خمسة أجزاء) ثمن الجزء الواحد ٣ قروش والجزءين الأول والثانى ٥ قروش والاشتراك فى الخمسة أجزاء ١٢ قرشا (اطلبها) أو اطلب معها كتاب فاروق الأول المجانى (البريد قرش صاغ) أو كتاب فلسطين الثائرة (قرشان) أو المرشد التاريخى (قرشان) ، ويزيد قرش صاغ على كل مؤلف فى الخارج وتطلب من الأستاذ :

عبد السلام حسنى
بشبرا شارع موسى رقم ١٦ بمصر

الافصاح فى فقه اللغة

معجم عربى : خلاصة المخصص وسائر المعاجم العربية . يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ويسعفك باللفظ حين يحضرك المعنى . أقرته وزارة المعارف ، لايستغنى عنه مترجم ولا أديب ، يقرب من ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير . طبع دار الكتب ، ثمنه ٢٥ قرشا يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه:

حسين يوسف موسى ، عبد الفتاح الصعيدى